التحضيرالرابع: الإنعكاسات التربوية للتصور الإسلامي عن الكون

الكون هو جزء رئيس من تصور أي فلسفة تربوية وهو نقطة انطلاقة لها نحو تحقيق أهدافها وبلوغ غاياتها.وله في تصورنا الإسلامي مكانة كبيرة تعيننا على فهم أنفسنا،وقيامنا بدورنا الذي خلقنا من أجله والذي نتعبد الله سبحانه وتعالى به،وهو أداة عظيمة لنا للتفكر والتدبر ننظر له بنظرة صحيحة مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية،وتصورنا الإسلامي له بأنه مخلوق لله تعالى، لم يوجد صدفة ولاعبثا،خاضع عابد مسبح له ولكننا لانفقه تسبيحه،وفي وجوده بالنسبة لنا له عالمين عالم الغيب وعالم الشهادة ،وبين عالم الغيب وعالم الشهادة علاقة قد نعجز عن إدراكها وتصورها كوسوسة الشيطان للإنسان ،وكمدد الملائكة للمؤمنين،ومصدرنا في إدراك ذلك هو القرآن والسنة.، خلق الكون مسخر للإنسان وميسر له ومذللا، منتظم في خلقه ومنظم، تحكمه نواميس دقيقة وقوانين محددة وعلاقات متوزانة متسقة، يتجه إلى غايات مرسومة تجعل حركته والحياة فيه بمقدار انتظامه واتساقه بعيدا عن الخلل من خصائص التغير وعدم الثبات والاستقرار، فيعتري مكوناته وعناصره ومركباته وأجزاءه وظواهره صغيرة كانت أوكبيرة التغير والتبدل والانتقال من حال إلى حال.

قال تعالى:(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة،١٦٤)

والإنسان يرتبط بعلاقة وطيدة مع هذا الكون، فهو مستخلف فيه ليعمره،والكون خلق لأجله وسخر له ، يؤثر به ويتأثر به فالعلاقة بينهما علاقة تبادلية، وفي نفس الوقت علاقة ود وليس صراع. يشاركه كل مافي الكون في عبادة ربه فيشعر بالسعادة في ذلك، ثم يشعر بمزيته على غيره من مخلوقات الكون الفسيح لكونه يعبد ربه باختياره بينما الكون كله طبع على عبادة الله عز وجل، وحينها يزداد خشوعا لله سبحانه وتعظيما له.

هذا التصور يجعل التربية الإسلامية تقف من الكون موقفا إيجابيا حيويا تسترشد به في العملية التربوية بأنشطتها وبرامجها ونظمها ومناهجها التعليمية والعلمية والتربوية،وإذا تحقق ذلك كان له انعكاس واضح وملموس يظهر في الإنسان إذ أن عملية التربية تستهدف الإنسان لتحقق نموه المتكامل، وتكسبه الخبرة والتجربة، وتغير سلوكه نحو ماهو مرغوب فيه من خلال التفاعل بين العوامل الذاتية للفرد وعوامل البيئة الاجتماعية والطبيعة المحيطة به، والتي يعتبر جزءا منها يتأثر بها ويؤثر فيها.وأداة التربية لتحقيق أهدافها المنهج بمكوناته، فهو عالمها الذي تعيش فيه وفق فلسفتها وتصورها.

وإذا كان التصور الإسلامي للتربية يؤمن بأثر الكون على الإنسان، وتأثيره فيه انعكس ذلك على المنهج في أمور عدة منها:

- ربط المنهج بين علاقة التسخير وعلاقة العبودية التي مر ذكرها ليصل الإنسان من خلال هذا الربط إلى الغاية النهائية من تسخير الكون له حين يشعر أنه اكتشف جانبا آخر من جوانب عظمة ربه سبحانه وتعالى فيزداد خشية وعبودية له.
- تطويع المنهج بعناصره ليحقق علاقة التأثر بين الإنسان والكون من خلال الوسائل المتاحة لتحقيق الأهداف والغايات المرجوة،وتطويع البيئة التعليمية لذلك بتجهيزها بكل مايحقق علاقة الإنسان بالكون.
- توجيه المتعلم إلى التأمل في الكون والنظر في ظواهره وعناصره ،ودراسة مركباته وأجزائه، واستجلاء أسراره، والكشف عن غوامضه، وفهم قوانينه ،وذلك لقصد الانتفاع بما أودع الله تعالى فيه من خيرات وفوائد لصالح البشر وتسخير مايزخر به من إمكانيات.
- تمكين المتعلمين من خلال المنهج من فهم القوانين التي تحكم ظواهر الكون ومن أهمها قانون السببية الذي يربط العلاقة بين الأسباب ومسبباتها، وقانون العلية الذي يربط العلاقة بين العلة ومعلولاتها مع التأكيد على أن الأمور كلها ترجع لله عزوجل وهو القادر على كل شيء سبحانه، فهو خالق الكون بما فيه من أسباب ومسببات وعلل ومعلولات.
- حسن استغلال مؤهلات الإنسان و قابليته للتعلم وقدراته العقلية للتعرف على مكونات هذا الكون وعناصره، فالله عزوجل منح الإنسان القدرات العقلية والمهارات الجسدية التي تمكنه من تحويل القوانين الكونية التي يكتشفها إلى تطبيقات وصناعات تمكن الإنسان من الانتفاع بعناصر الكون ومكوناته لتيسير حياته،وتذليل مايواجهه من صعوبات وعقبات.
- الاهتمام الكامل بالكون بمركباته وأجزائه وعناصره وظواهره وموجوداته، لأنه المحيط المادي والطبيعي الذي يعيش فيه الإنسان، ويعتبر جزءا منه يرتبط به ارتباطا وثيقا، فيتأثر به ويؤثر فيه إلى أقصى حد ممكن هذا من جهة ،ولأنه مجال الاستخلاف بالتكليف الرباني للإنسان ليستثمر إمكانياته وخيراته ويستفيد بكنوزه وخيراته،ويستمتع بمباهجه وطبياته، ويقيم فيه حياته على أساس الهدى والتقى والفضيلة والعدل.
- التركيز على تراث الإنسان الفكري والمعرفي والعلمي، وما يمتلكه من خبرات وتجارب ومعارف وعلوم ونتائج سابقة تعين في عمارة الكون والتأثير فيه؛ ليحقق تقدمه وتطويره فالله قد زوده بقدرات لغوية وكتابية يحفظ بها تراثه، ومكنه من نقلها إلى أجياله المتتالية جيلا بعد جيل.
- تحقيق التوازن بين عناصر المنهج ومحتوياته لأن الكون كله والحياة قائمان على التوازن، ومن خلال التوازن والتسخير تستمر الحياة،وذلك من خلال الموازنة بين الروح والجسد وإشباع حاجاتهما بحيث تراعي العملية التربوية بأساليبها وبرامجها ومناهجها وأهدافها الفطرة الإنسانية السليمة ،وتحفظها من كل مايشوبها، وتلبي حاجاتها.

- تحقيق العدل في بيئة التربية إذ الكون قائم على العدل فبالعدل يستمر الوجود الإنساني وتعمر الأرض ،وبالظلم ينتشر الدمار وتضيع خيرات الكون، ويفقد الإنسان طاقاته وقدراته لفقده للأمن،وشعوره بالظلم وضياع حقوقه في هذا الكون، فالعدل قرين الأمن ومتى فقده الإنسان فقد إحساسه بالحياة وقدرته على تحقيق أهدافه.
- تربية المتعلم على المسؤولية وضبط سلوكه فهو محاسب على أعماله سواء فيما يتعلق بذاته أم بغيره أم بالكون الذي يعيش فيه إذ أن علاقة التسخير تطالبه بالمسئولية عن تصرفاته وقيامه في دوره وهذا من شأنه أن يورث لديه الرقابة الذاتية ويمنعه عن كل مايسيء فيعدل سلوكه وفق مهمته في الأرض واستخلافه عليها مع إيمانه بعظمة هذا الكون وقدرة الله عزوجل عليه فكيف له أن يخالف أمره أو أن يعصيه.
- استشراف مستقبل الإنسان من خلال الإيمان بتغير الكون ومافيه ،فالكون في حركة مستمرة وتغير متواصل، ولو سكن لتجمد وتوقف فيه كل شيء وانتهت عليه الحياة، وكذلك النشاط البشري فكريا او اقتصاديا او اجتماعيا او علميا او تقنيا يجري عليه مايجري على الكون من تطور وتغير وتبدل مستمر،وهذا التغير يحمل في ثناياه معنى للتقدم والتطور إذا سخر الإنسان قدراته العقلية وإرادته وجهده في توظيفه وتوجيهه ؛لتحقيق حياة أفضل على أساس من الفهم والتبصر والتخطيط العلمي الواعي وفق مايمتلكه من إمكانات وموارد مختلفة.
- الاعتناء بحواس المتعلم لأنها من أدوات التسخير، وتدريبه على استثمارها في تعلمه من خلال البحث العلمي، والحرص على سلامتها واستخدامها بصورة صحيحة،وتقديم الوسائل والأنشطة المعينة على ذلك من خلال المنهج وماتتطلبه من تحديد العمليات المعرفية والميادين العلمية.
- التركيز على إتقان العمل وجودة التعلم حيث خلق هذا الكون في انتظام ودقة ليس لها مثيل،ومن خلال تأمله وتفكره يدرك عظمة خلق هذا الكون وجودته؛ فيسعى لإتقان علمه وجودة عمله فيحقق الفائدة العظمى من تسخير كل مافي الكون له.
- ربط العلم بالعمل إذ أن الإنسان خلق مستخلفا مؤتمنا على عمارة الأرض، واستخراج كنوز هذا الكون وخيراته، ولايكون هذا إلا بعلم مرتبط بعمل فالعلم وحده لن يحقق له شيء وعمله بلاعلم يجعله رهين الصدفة والمفاجآت ومهدد بالكوارث الكونية والهلاك من أي باب يأتيه لايستطيع رده.
- شمولية المنهج بعناصره المختلفة لجوانب الإنسان مع التركيز على أساسيات المعرفة في محتوى المنهج إذ أن الكون عالم فسيح ،ومهما تعرف الإنسان واكتشف فمايزال هناك الكثير ليصل إليه.
- الاهتمام بالتفكير وقواعده وأنواعه ومهاراته كالتفكير المنطقي والعلمي والإبداعي والناقد في طرق التدريس واستراتيجياته وأساليبه،إذ تفرض علاقة الإنسان بالكون أن يكون منتجا مفكرا باحثا مكتشفا، وليس سلبيا مستهلكا لمايقدم له.

-الإجابة عن الأسئلة الخمسة التي تصف عناصر المنهج وفق هذا التصور وهي:

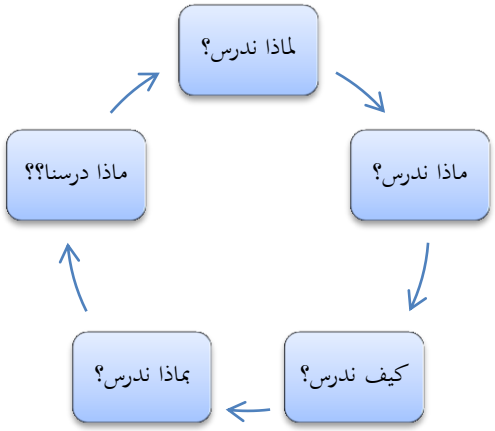

الأهداف(لماذا ندرس؟): الهدف عبارة عن نواتج تعليمية مرجو تحقيقها من خلال منظومة التدريس. ووفق هذا التصور لابد للهدف أن يكون أكثر عمقا فيما سيصبح المتعلم قادرا على أدائه بعد الانتهاء من ذلك المنهج لأنه خليفة الله على الأرض ويتحمل مسئولية عمارة هذا الكون، وأن يحققه بأكبر درجة من الوضوح والاتقان،والأهداف متدرجة منتظمة في سلسلة تتوافق مع مراحل تربية الإنسان وتعلمه.

المحتوى (ماذا ندرس؟): "يشمل جميع الخبرات التعليمية المعدة والمقدمة للمتعلمين خلال المنهج ويتألف من مجموعة من المكونات المهمة التي تشكل في مجملها المكونات المعرفية والمهارية والوجدانية للخبرة" (فتح الله ،١٤٢٨هـ،ص١٢٣)

يواجه المحتوى بكم هائل من المعرفة وكيف متنوع لها، ووفق التصور الإسلامي عن الكون لابد أن يركز المحتوى على أساسيات هذا التصور في جميع المقررات التي تقدم للمتعلم يحقق الربط بالكون من خلال عمق أفكاره وارتباطه ببيئة المتعلم ومايحدث في الكون من ظواهر وقوانين إلهية تحكمه يحتاج الإنسان أن يفهمها، ويتبصر بها صادقا متوازنا بين شمولية وعمق،و مهما للإنسان متنوعا يراعي ميوله واستعداده واختلافه عن غيره.مرنا وليس جامدا يحقق الأهداف المناطة به.

طريقة التدريس (كيف ندرس؟):" عبارة عن مجموعة من الأنظمة والترتيبات والقواعد التي تستند إلى العقل،والمتوازية والتي تهدف إلى تقديم المعلومات والمهارات وجوانب التعلم المختلفة لعديد من الاستراتيجيات التدريس مراعية في ذلك طبيعة المتعلم والمادة الدراسية وموضوع الدرس وأهدافه وبيئة التعلم السائدة بالمدرسة "(زيتون،١٤٢٥هـ،ص ٣٠٩)

وهي ليست قاعدة ضيقة جافة بل تتميز بقدر كبير من المرونة، وإذا نجحت طريقة التدريس فإنها تخلق الوسائل للتفكير والإحساس والشعور والتفاعل، ولاتوجد طريقة واحدة يمكن وصفها بأنها الأفضل،فالطريقة الفعالة هي الفعالة داخل الموقف التدريسي المعين.

ووفق التصور الإسلامي عن الكون يطالب المعلم باستخدام طرق أكثر تحقيقا للأهداف وربطا للواقع واستكشافا للكون قائمة على البحث والتجريب مع التأكيد على تعلم العمليات العقلية الأساسية وفهم المفاهيم والعلاقات،والتعامل مع خبرات المتعلم بالبناء عليها وعدم تجاهلها ومن تلك الطرق الاستكشاف والتأمل والاستقصاء وحل المشكلات والتدريب العملي وغيرها.

الوسائل(بماذا ندرس؟): هي مجموعة المواقف والأجهزة والأدوات والمواد التي يستخدمها المعلم ضمن إجراءات استراتيجيات التدريس لتحسين عملية التدريس.(زيتون،١٤٢٥هـ،ص٣٤٣)

وفق هذا التصور كلما كانت الوسائل حقيقية تربط المتعلم بواقعه وخبرته، وتعينه على اكتشاف الكون حوله كانت أجدر على تحقيق أهداف التربية، حيث تربطه بالحوادث الكونية،وتجعله يجرب ويختبر ويكتشف فيستخدم حواسه وتفكيره وبذلك يحصل تأثره بالكون من حوله وتأثيره فيه بما يصل إليه.

التقويم (ماذا درسنا؟؟) التدريس الجيد يتطلب تقويما دقيقا لجوانب التعلم سواء كانت معلومات أو مهارات أو جوانب وجدانية، وذلك قبل البدء في التعليم لتحديد المستوى الذي يجب الانطلاق منه، وأثناءه لتحديد نقاط القوة والضعف في تعلم المتعلم، وتقويما نهائيا دقيقا في نهاية التعلم للحكم على مدى تحقيق الأهداف التدريسية بصورة شاملة.

وفي ربط تقويم المتعلم بعلاقته بالكون ودوره فيه وتصوره عن ذلك مايعينه على القيام بواجباته، ويزيد من رغبته في التعلم والاكتشاف، وتقويم ذاته ومن حوله بموضوعية وصدق ووضوح ،مع الاهتمام بتنوع أساليب تقويمه بشكل يرتبط ببيئته والكون حوله بمخلوقاته المختلفة، فيحقق تعليما أقوى أثرا وآكد في انتقاله مع مراحل التعليم المختلفة، ويزيد من خبراته وتنوعها وإشباع حاجاته ودوافعها.

لعلنا في نهاية الحديث عن انعكاسات التصور على الكون نؤكد على الدور الكبير الذي يتحمله المعلم أو المربي ليعكس هذا التصور في تعليمه كما ذكر بكار(١٤٢٣هـ)"أن في إمكان المعلم أن يحول أي مادة جامدة ومقفلة إلى مادة حية ومنفتحة؛من خلال المناقشة واستخدام الثقافة المتألقة،وأن بعض المواد والمقررات أشبه بالهيكل العظمي؛والمعلم بثقافته الواسعة يبعث فيها الحياة والحيوية"(ص١٢٠).

فإذا رسخ هذا التصور لدى المعلم وكان منطلقه في تعليمه ظهر ذلك في تفاعله مع طريقته في تدريسه سواء في تخطيط درسه أو تنفيذه ،إذ أنه لاينفك عن تصوراته واعتقاداته،وكانت النتيجة بناء جيل مفكر مبدع يستحق قيادة العالم، والقيام بحق الاستخلاف في هذا الكون.

المراجع:

-بكار،عبدالكريم(١٤٢٣هـ)**بناء الأجيال**.الرياض: المنتدى الإسلامي.

-الزنتاني،عبدالحميد الصيد(١٩٩٨).**فلسفة التربية الإسلامية في القرآن والسنة**.القاهرة: الدار العربية للكتاب.

زيتون،كمال عبدالحميد(١٤٢٥هـ).**التدريس نماذجه ومهاراته**.ط٢.القاهرة: عالم الكتب.

-الصبيح، عبدالله بن ناصر(١٤٢٠هـ).**تمهيد في التأصيل: رؤية في التأصيل الإسلامي لعلم النفس**. الرياض:دارإشبيليا.

-العسال،أحمد محمد(١٣٩٥هـ).**الإسلام وبناء المجتمع**.الكويت:دارالقلم.

-فتح الله،مندور عبد السلام(١٤٢٨هـ).**أساسيات المنهج المعاصرة**.ط٢.الرياض: الرشد.

-الكيلاني،ماجد عرسان(١٤٣٠هـ).**فلسفة التربية الإسلامية:دراسة مقارنة بالفلسفات التربوية المعاصرة**.عمان:دار الفتح.

-مرسي،محمد منير(١٩٧٩).**أصول التربيةالثقافية والفلسفية**.القاهرة: عالم الكتب.